المجموعة التاريخية للصغار

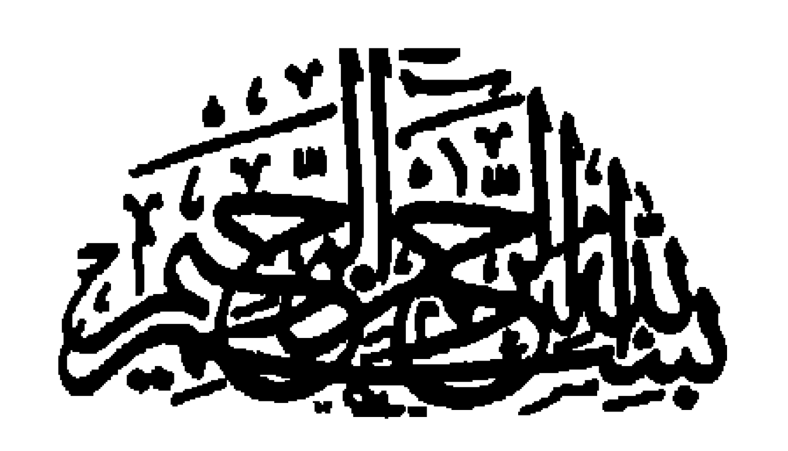
عجائب رحلة ابن بطوطة

حارسُ البستان



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار:

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب: 78

هاتف 2213129 3 / 2269599 فاكس: 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

حارس البستان

ذَاتَ مَسَاءٍ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ سُلْطَانُ فَاسَ وَمَا حَوْلَهَا ، فَرَغَ مِنْ هُمُومِ النَّهَارِ ، وَمِنْ مَشَاغِلِ النَّاسِ ، وَمَا كَادَ حَتَّىٰ أَذَّنَ مُؤَذِّنُ الْقَصْرِ بِأَذَانِ الْعِشَاءِ فَطَلَبَ إِلَىٰ ضَيْفِهِ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُّوطَةَ أَنْ يَؤُمَّهُ فِي الصَّلاَةِ وَقَدْ أَخَذَ الإِعْيَاءُ مِنْهُ مَأْخَذَهُ فَقَامَ الرَّحَالَةُ الأَمِينُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطَةَ إِمَاماً فِي مَوْلاَهُ السُّلْطَانِ وَرَفِيقِهِ وَنَدِيمِهِ الكَاتِبِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزَيٍّ . وَكَانَ أَنْ قَرَأَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي وُقُوفِهِ لِلرَّكْعَةِ الأُولَىٰ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ مِنْ سُورَةِ الطَّلاَقِ : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ . وَقَرَأَ الإِمَامُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنَ السُّورَةِ نَفْسِهَا فِي قِيَامِهِ لِلرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ : ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ

يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ .

فَلَمَّا فَرَغَ الإِمَامُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ صَلاَتِهِ بِالسُّلْطَانِ وَكَاتِبِهِ إِمَاماً ، وَأَدَّىٰ مَا تَبَقَّىٰ مِنْ صَلاَةِ السُّنَّةِ وَوَاجِبِ الوِتْرِ ، جَلَسَ فِي جَانِبٍ مِنَ القَاعَةِ الوَسِيعَةِ فِي انْتِظَارِ أَنْ يَفْرَغَ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانٍ وَكَاتِبُهُ ابْنُ جُزَيٍّ مِنْ صَلاَتِهِمَا ، فَلَمَّا فَرَغَا دَعَا لَهُمَا بِالتَّقَبُّلِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي كَانَتِ الصَّلاَةُ لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ .

اسْتَقَرَّ بِهِمُ المَجْلِسُ فِي صَمْتٍ خَيَّمَتْ فِي أَرْجَائِهِ هَيْبَةُ السُّلْطَانِ أَبِي عَنَانٍ ، وَلَبِثَ السُّلْطَانُ بُرْهَةً يَحُكُّ عُثْنُونَهُ أَسْفَلَ لِحْيَتِهِ وَلاَ يَتَكَلَّمُ ثُمَّ تَنَحْنَحَ قَلِيلاً ، وَتَوَجَّهَ إِلَىٰ ابْنِ بَطُّوطَةَ بِالسُّؤَالِ قَائِلاً :

ـ هَلْ كَانَ اخْتِيَارُكَ لِمَا قَرَأْتَ فِي صَلاَتِكَ مِنْ سُورَةِ الطَّلاَقِ عَنْ قَصْدٍ تَقْصِدُهُ أَوْ مَأْرَبٍ أَمْ قَرَأْتَ قِرَاءَتَكَ مِنْ دُونِ قَصْدٍ تَقْصِدُهُ أَوْ مَأْرَبٍ تُلْمِحُ إِلَيْهِ ؟ .

وَأَضَافَ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانٍ مُتَسَائِلاً وَهُوَ يُوَجِّهُ نَظَرَهُ إِلَىٰ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ بِابْتِسَامَةٍ غَامِضَةٍ يُخْشَىٰ مِنْهَا مَا يُخْشَىٰ ، وَيُؤَمَلُ مَا يُؤَمَلُ :

ـ هَلْ كَانَ نُكُوصُكَ فِي القِرَاءَةِ مِنْ آيَاتٍ بَعْدُ إِلَىٰ آيَاتٍ قَبْلُ فِي السُّورَةِ نَفْسِهَا ، ضِمْنَ قَصْدٍ تَقْصِدُهُ أَوْ مَأْرَبٍ تُلْمِحُ إِلَيْهِ ؟ .

اضْطَرَبَ ابْنُ بَطُّوطَةَ اضْطِرَاباً فِي دَاخِلِهِ ، وَانْعَكَسَ فِي اكْفِهْرَارِ وَجْهِهِ ، لِهَذِهِ التَّسَاؤُلاَتِ السُّلْطَانِيَّةِ المُفَاجِئَةِ ، وَلَكِنَّهُ اسْتَرْجَعَ فِي نَفْسِهِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فَقَالَ : (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) وَاحْتَسَبَ مُرَدِّداً : (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) ، وَتَرَحَّمَ عَلَىٰ رُوحِ وَالِدِهِ فِي سِرِّهِ ، وَهُوَ يَذْكُرُ نَصِيحَتَهُ لَهُ قَائِلاً : إِيَّاكَ وَصُحْبَةَ السُّلْطَانِ ، فَإِنَّ غَدَرَاتِهِ أَمَرُّ وَأَدْهَىٰ مِنْ غَدَرَاتِ الزَّمَانِ . .

كَانَ هَذَا مَا جَالَ فِي خَاطِرِ ابْنِ بَطُّوطَةَ المُسْتَهْدَفِ بِرِيبَةِ السُّلْطَانِ ، قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ فَمَهُ بَالإِجَابَةِ عَنْ هَذِهِ التَّسَاؤُلاَتِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تُخْفِي وَرَاءَهَا إِشَارَةً بِإِصْبَعِ الاتِّهَامِ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُجِيباً :

ـ عَفْوُ مَوْلاَيَ مِنْ كُلِّ ظَنٍّ وَشُبْهَةٍ ، وَصَدِّقْنِي لَمْ أَقْصِدْ بِقِرَاءَتِي إِلَىٰ غَايَةٍ وَلَمْ أُلْمِحْ إِلَىٰ مَأْرَبٍ . وَكَيْفَ أَقْصِدُ مَا أَقْصِدُ وَأَنْتَ يَا مَوْلاَيَ مَنْ قَدَّمْتَنِي بِالصَّلاَةِ إِمَاماً ، وَلَمْ تَقْبَلِ اعْتِذَارِي إِلَيْكَ مُقَدَّماً ؟ ! .

وَأَضَافَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُسْتَبْرِئاً :

ـ صَدِّقْنِي يَا مَوْلاَيَ مَا قَصَدْتُ بِصَلاَتِي وَقِرَاءَتِي إِلاَّ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ . . وَأَمَّا نُكُوصِي فِي تَسَلْسُلِ وُرُودِ الآيَاتِ فِي سُورَةِ الطَّلاَقِ فَقَدْ كَانَ مِنْ قَبِيلِ السَّهْوِ أَوْ التَّهَيُّبِ مِنَ الوُقُوفِ فِي حَضْرَتِكَ إِمَاماً . .

تَبَسَّمَ السُّلْطَانُ أَبُو عنَانٍ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً تَنُمُّ عَنِ الرِّضَىٰ وَالاقْتِنَاعِ بِحُجَّةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ وَبِبَرَاءَتِهِ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ وَتَلْمِيحٍ وَقَالَ لابْنِ بَطُّوطَةَ نَدِيمِ مَجْلِسِهِ وَرَاوِي أَخْبَارِ رَحَلاَتِهِ العَجِيبَةِ :

ـ الآنَ بَرْداً وَسَلاَماً . . لَقَدْ كُنْتُ أُدَاعِبُكَ . .

أَجَابَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَالآنَ يَا مَوْلاَيَ أَيَكُونُ مِنْكَ إِمْسَاكٌ بِالمَعْرُوفِ أَمْ مُفَارَقَةٌ بِـ . .

قَاطَعَهُ السُّلْطَانُ أَبُو عنَانٍ مُجِيباً وَهُوَ يَضْحَكُ :

ـ بَلْ هُوَ إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ وَإِحْسَانٍ ، وَرِزْقٌ مِنْ حَيْثُ لاَ تَحْتَسِبُ

وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ كَانَتْ بَدْرَةً مِنْ دَنَانِيرَ ذَهَبِيَّةٍ .

وَعَلَّقَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ عَلَىٰ مَا رَأَىٰ وَسَمِعَ قَائِلاً :

ـ الحَمْدُ للهِ ، ثُمَّ الحَمْدُ للهِ . . لَقَدْ فُرِجَتْ أَخِيراً بَعْدَ أَنْ كَادَ يَقْضِي عَلَيَّ الهَمُّ وَالحُزْنُ ، وَلاَ أَقُولُ : الخَوْفُ مِنْ سُلْطَانٍ عَادِلٍ رَحِيمٍ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عنَانٍ :

ـ أَحْسَنْتَ يَا بْنَ جُزِّيٍّ يَا خَيْرَ مَنْ خَطَّ يَرَاعُهُ وَمَنْ أُلِفَ اجْتِمَاعُهُ . .

وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ .

أَرَادَ ابْنُ بَطُّوطَةَ الاعْتِذَارَ عَنِ القَصِّ وَالرِّوَايَةِ أَمَامَ السُّلْطَانِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَلَكِنَّ السُّلْطَانَ أَبَا عَنَانٍ لَمْ يُعْفِهِ مِنْ مَهَمَّتِهِ ، وَقَدْ بَدَا مُولَعاً

بِسَمَاعِ قَصَصِ عَجَائِبِهِ وَغَرَائِبِهِ وَطَرَائِفِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

ـ جُدْ عَلَيْنَا يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ بِتُحْفَةٍ مِنْ تُحَفِكَ تُحَدِّثُنَا فِيهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ التُّقَىٰ وَالصَّلاَحِ ، كَمَا كَانَ مِنْ حَدِيثِكَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ الَّذِي طَلَّقَ المُلْكَ لِيَخْلُصَ إِلَىٰ العِبَادَةِ وَالزُّهْدِ .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ المُسَاهِرُ المُسَامِرُ :

ـ أَمْرُ مَوْلاَيَ . . أُحَدِّثُكُمْ بِخَبَرِ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ حَارِسِ البُسْتَانِ الَّذِي افْتَقَدَهُ السُّلْطَانُ نُورُ الدِّينِ سُلْطَانُ دِمَشْقَ قَبْلَ صَلاَحِ الدِّينِ . . وَأُحَدِّثُكُمْ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ كَيْفَ اخْتَفَىٰ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَعْدَ أَنْ بَدَتْ كَرَامَاتُهُ وَعَمَّتْ شُهْرَتُهُ .

قَالَ السُّلْطَانُ :

ـ هَاتِ مَا عِنْدَكَ ، وَلاَ تَبْخَلْ عَلَيْنَا يَا بْنَ بَطُّوطَةَ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي مَحْضَرِ السُّلْطَانِ وَكَاتِبِهِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزِّيٍّ :

اعْلَمْ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ أَنَّنِي بَعْدَ أَنْ جَاوَزْتُ مَدِينَةَ بَيْرُوتَ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَىٰ البَحْرِ ، صَغِيرَةٌ حَسَنَةُ الأَسْوَاقِ وَجَامِعُهَا بَدِيعُ الحُسْنِ ، قَصَدْتُ فِي مَعْشَرٍ مِنَ القَاصِدِينَ زِيَارَةَ مَدْفَنِ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسَفَ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ مُلُوكِ المَغْرِبِ وَعَافَتْ نَفْسُهُ المُلْكَ إِلَىٰ الزُّهْدِ وَالوَرَعِ وَالاقْتِيَاتِ بِالكَدْحِ وَتَعَبِ اليَدَيْنِ .

كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الزَّاهِدُ يَعْمَلُ بِنَسْجِ الحُصُرِ ، يَبِيعُهَا وَيَقْتَاتُ بِثَمَنِهَا ، وَيُحْكَىٰ أَنَّهُ دَخَلَ مَدِينَةَ دِمَشْقَ مُتَكَفِّفاً مِنَ الرِّزْقِ أَقَلَّهُ ، فَمَرِضَ بِهَا مَرَضاً شَدِيداً ، فَنَبَذَ النَّاسَ وَنَبَذُوهُ ، وَأَقَامَ عُرْضَةً مَطْرُوحاً فِي الأَسْوَاقِ لاَ يُقِيلُهُ أَحَدٌ مِنَ المَكْرُوهِ ، وَلاَ يُفَرِّجُ هَمَّهُ إِلاَّ خَلْوَتُهُ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّوْحِيدِ وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ رَبِّ العَالَمِينَ الَّذِي إِذَا أَحَبَّ عَبْداً ابْتَلاَهُ . . قَالُوا : وَلَمَّا بَرِىءَ الشَّيْخُ أَبُو يَعْقُوبَ مِنْ مَرَضِهِ ، خَرَجَ إِلَىٰ ظَاهِرِ دِمَشْقَ لِيَلْتَمِسَ بُسْتَاناً يَكُونُ حَارِساً لَهُ ، وَبَعْدَ لأْيٍ وَمَشَقَّةٍ اهْتَدَىٰ إِلَىٰ مَنْ يَسْتَأْجِرُهُ لِحِرَاسَةِ بُسْتَانِ المَلِكِ نُورِ الدِّينِ ، فَشَكَرَ اللهَ الَّذِي هُوَ الرَّزَّاقُ العَلِيمُ .

وَانْقَضَتْ عَلَىٰ تَعَهُّدِهِ الحِرَاسَةَ لِلْبُسْتَانِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ فَلَمَّا دَخَلَ الخَرِيفُ

فِي مَوْسِمِ الفَاكِهَةِ وَأَوَانِهَا أَتَىٰ السُّلْطَانُ نُورُ الدِّينِ إِلَىٰ ذَلِكَ البُسْتَانِ الَّذِي أَضْحَىٰ يُشْبِهُ الرَّوْضَةَ الجَنَانِيَّةَ ، وَأَمَرَ السُّلْطَانُ وَكِيلَهُ أَنْ يَلْقَىٰ الحَارِسَ أَبَا يَعْقُوبَ وَيَطْلُبَ إِلَيْهِ بَعْضاً مِنْ أَطْيَبِ الرُّمَّانِ مَذَاقاً لِيَأْكُلَ مِنْهُ . فَمَا كَانَ مِنَ الحَارِسِ إِلاَّ أَنْ اسْتَجَابَ لِلأَمْرِ السُّلْطَانِيِّ ، وَقَطَفَ بَعْضاً مِنَ الرُّمَّانِ وَأَعْطَاهُ لِلْوَكِيلِ لِيَحْمِلَهُ إِلَىٰ السُّلْطَانِ .

تَذَوَّقَ السُّلْطَانُ وَاحِدَةً مِنَ الرُّمَّانِ فَوَجَدَهَا حَامِضَةَ المَذَاقِ ، ضَاقَ بِهَا مِزَاجُهُ وَأَمَرَ وَكِيلَهُ مَرَّةً ثَانِيَةً أَنْ يَمْضِيَ إِلَىٰ الحَارِسِ وَيَسْتَقْطِفَهُ رُمَّانَةً تَكُونُ حُلْوَةً يَسْتَطِيبُهَا ذَوْقُ السُّلْطَانِ نُورِ الدِّينِ نَفْسِهِ . فَلَمَّا أَحْضَرَ الوَكِيلُ الرُّمَّانَةَ وَتَذَوَّقَهَا وَجَدَهَا حَامِضَةً كَأُخْتِهَا فَأَبْدَىٰ دَهْشَتَهُ وَامْتِعَاضَهُ وَاسْتَدْعَىٰ إِلَيْهِ حَارِسَ البُسْتَانِ الشَّيْخَ أَبَا يَعْقُوبَ ، وَقَالَ لَهُ :

ـ أَسْأَلُكَ رُمَّاناً حُلْواً ، وَتَبْعَثُ لِي بِأَحْمَضِهِ طَعْماً مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ؟ ! كَيْفَ هَذَا يَا شَيْخُ ؟ ! .

أَجَابَ الشَّيْخ التَّقِيُّ :

ـ اعْلَمْ أَيُّهَا الأَمِيرُ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَنِي عَلَىٰ الحِرَاسَةِ لاَ عَلَىٰ الأَكْلِ ، وَلَنْ أَسْتَبِيحَ لِنَفْسِي مَا لَيْسَ لَهَا بِحَقٍّ .

قَامَ الأَمِيرُ إِلَيْهِ وَعَانَقَهُ ، وَأَجْلَسَهُ إِلَىٰ جَانِبِهُ وَدَعَاهُ إِلَىٰ أَنْ يَلْتَزِمَ الإِقَامَةَ فِي رِحَابِهِ مَوْفُورَ الرِّزْقِ وَالكَرَامَةِ . فَقَالَ الشَّيْخُ لِلأَمِيرِ :

ـ أَنْتَ أَيُّهَا الأَمِيرُ رَجُلٌ كَرِيمٌ مِضْيَافٌ لاَ أَشُكُّ فِي ذَلِكَ ، وَلَكِنَّنِي لَنْ أَهْجُرَ الأَرْحَبَ إِلَىٰ الرَّحْبِ وَالأَكْرَمَ إِلَىٰ الكَرِيمِ . . أَنَسِيتَ أَنَّنِي فِي ضِيَافَةِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَهُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ ؟ .

قَالَ الأَمِيرُ :

ـ بَلْ فَهِمْتُ الآنَ حَقَّ الفَهْمِ ، وَأَنَا حَرِيصٌ عَلَىٰ اسْتِبْقَائِكَ فِيمَا اخْتَرْتَ مِنْ حِرَاسَةِ البُسْتَانِ . .وَقَدْ جَعَلْتُ فِي عُنُقِ وَكِيلِي الالْتِزَامَ بِإِكْرَامِكَ وَالسُّؤَالِ عَمَّا تَحْتَاجُ ، فِي حُدُودِ مَا يُرْضِي اللهَ وَيُرْضِيكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ .

خَرَجَ حَارِسُ البُسْتَانِ هَائِماً عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي أَوَانِ البَرْدِ الشَّدِيدِ ، لأَنَّهُ خَشِيَ مِنَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ أَنْ تُحَدِّثَهُ بِمَا يُخَالِفُ تَقْوَاهُ إِذَا حَلَّ حِيَاضَ السُّلْطَانِ وَوَكِيلِهِ .

وَبَيْنَمَا كَانَ فِي وِجْهَتِهِ الْتَقَىٰ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الضُّعَفَاءِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ النُّزُولَ عِنْدَهُ ، فَاسْتَجَابَ الدَّعْوَةَ لِمَا أَنِسَ مِنْ ضَعْفِ حَالِ الرَّجُلِ وَحَلاَلِ اكْتِسَابِهِ لِلْمَالِ ، فَلَمَّا نَزَلَ فِي بَيْتِ دَاعِيهِ ، ذَبَحَ لَهُ دَجَاجَةً ، وَصَنَعَ لَهُ حِسَاءً وَأَتَاهُ بِخُبْزِ شَعِيرٍ ، فَأَكَلَ مِنْ ذَلِكَ وَدَعَا لِلرَّجُلِ بِمَا تَيَسَّرَ لَهُ .

وَكَانَ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَضَافَهُ عَائِلاً لِجُمْلَةٍ مِنَ الأَوْلاَدِ ، وَمِنْ جُمْلَةِ أَوْلاَدِهِ بِنْتٌ قَدْ آنَ أَوَانُ زَوَاجِهَا مِنْ رَجُلٍ كَانَ قَدْ خَطَبَهَا مِنْ أَبِيهَا ، وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ فِي تِلْكَ البِلاَدِ أَنَّ البِنْتَ يُجَهِّزُهَا أَبُوهَا ، وَيَكُونُ مُعْظَمُ الجَهَازِ أَوَانِيَ مِنَ النُّحَاسِ ، وَبِالنُّحَاسِ يَتَفَاخَرُونَ ، وَبِهِ يَتَبَايَعُونَ .

فَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو يَعْقُوبَ لِمُضِيفِهِ أَبِي البِنْتِ المَخْطُوبَةِ :

ـ هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ مِنَ النُّحَاسِ ؟

قَالَ أَبُو البِنْتِ :

ـ بَلَىٰ ، فَلَقَدِ اشْتَرَيْتُ مِنْهُ لِتَجْهِيزِهَا بِمَا يَلِيقُ .

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو يَعْقُوبَ : ائْتِنِي بِهِ فِي الحَالِ ، فَأَتَاهُ بِهِ ، فَقَالَ : اسْتَعِرْ مِنْ جِيرَانِكَ كُلَّ مَا أَمْكَنَكَ مِنْهُ .

فَفَعَلَ ، وَأَحْضَرَ كُلَّ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيِ الشَّيْخِ ، فَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْخِ أَبِي يَعْقُوبَ صَاحِبِ الكَرَامَاتِ إِلاَّ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ صُرَّةً كَانَتْ عِنْدَهُ ، وَكَانَ فِيهَا ضَرْبٌ مِنَ الإِكْسِيرِ الَّذِي يُحَوِّلُ المَعَادِنَ إِلَىٰ ذَهَبٍ ، فَطَرَحَ مِنْهُ عَلَىٰ الآنِيَةِ النُّحَاسِيَّةِ فَصَارَتْ كُلُّهَا ذَهَباً .

قَالَ الضَّيْفُ الشَّيْخُ أَبُو يَعْقُوبَ لِمُضِيفِهِ صَاحِبِ البَيْتِ :

ـ ضَعْ مَا حَصَلَ لَكَ مِنَ الذَّهَبِ فِي حُجْرَةٍ مُقْفَلَةٍ ، وَخُذْ عَنِّي هَذَا الكِتَابَ إِلَىٰ نُورِ الدِّينِ مَلِكِ دِمَشْقَ . .

وَفَجْأَةً اخْتَفَىٰ الشَّيْخُ عَنْ نَظَرِ مُضِيفِهِ وَلَمْ يَعْثُرْ لَهُ عَلَىٰ أَثَرٍ . . وَذَهَبَ صَاحِبُ البَيْتِ بِالكِتَابِ إِلَىٰ المَلِكِ نُورِ الدِّينِ وَحَدَّثَهُ بِمَا كَانَ مِنْ خَبَرِهِ ، وَمِنْ تَحْوِيلِهِ النُّحَاسَ إِلَىٰ ذَهَبٍ ، وَمِنِ اخْتِفَائِهِ المُفَاجِئِ ، فَسَارَعَ السُّلْطَانُ بِمَوْكِبِهِ إِلَىٰ بَيْتِ الرَّجُلِ وَاطَّلَعَ عَلَىٰ حَقِيقَةِ الأَمْرِ وَتَبَيَّنَهُ كَمَا جَرَىٰ فِي مَوْضِعِهِ ، وَفَتَحَ الرِّسَالَةَ المُوَجَّهَةَ إِلَيْهِ فَوَجَدَ فِيهَا بَعْدَ التَّسْمِيَةِ وَحَمْدِ اللهِ ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَىٰ رَسُولِهِ الكَرِيمِ :

(مِنْ عَبْدِ اللهِ يُوسُفَ أَبِي يَعْقُوبَ إِلَىٰ السُّلْطَانِ نُورِ الدِّينِ مَلِكِ دِمَشْقَ . . إِذَا كُنْتَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَىٰ وَالبِرِّ وَالإِحْسَانِ أَدْعُوكَ إِلَىٰ بِنَاءِ مَارِسْتَانَ[١] لِلْمَرْضَىٰ مِنَ الغُرَبَاءِ ، وَأَنْ تُوقِفَ عَلَيْهِ الأَوْقَافَ اللَّازِمَةَ ، وَأُوصِيكَ بِبِنَاءِ الزَّوَايَا[٢] عَلَىٰ الطُّرُقِ لِيَأْوِيَ إِلَيْهَا مَنْ يَحْتَاجُهَا ، كَمَا أُوصِيكَ بِإِرْضَاءِ أَصْحَابِ النُّحَاسِ وَبِإِعْطَاءِ البَيْتِ كِفَايَتَهُ وَاللهُ هُوَ الكَافِي الغَنِيُّ الحَمِيدُ . .) .

---

(١) المارستان : المشفىٰ .
(٢) الزوايا : المآوي للغرباء يحلون بها مجاناً .

لَمْ يُقَصِّرِ المَلِكُ نُورُ الدِّينِ مَلِكُ دِمَشْقَ فِي العَمَلِ بِوَصِيَّةِ الشَّيْخِ يُوسُفَ أَبِي يَعْقُوبَ ، الَّذِي كَانَ حَارِساً لِبُسْتَانِهِ ، وَطَلَبَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَلَمْ يَعْرِفْ لَهُ مَوْطِناً وَلاَ مَقَرّاً حَتَّىٰ وَافَاهُ الأَجَلُ المَحْتُومُ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ الأَمِينُ المُنَادِمُ لِلسُّلْطَانِ أَبِي عَنَانٍ سُلْطَانِ فَاسَ بِالمَغْرِبِ :

ـ تِلْكَ هِيَ حِكَايَةُ صَاحِبِ الكَرَامَاتِ الشَّيْخِ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ ، حَارِسِ البُسْتَانِ . . فَكَيْفَ وَجَدْتَهَا ؟ ! .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانٍ :

ـ لاَ فُضَّ فُوكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ، يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، وَإِلَيَّ المَزِيدُ مِنْ هَذِهِ العَجَائِبِ وَالغَرَائِبِ وَالطَّرَائِفِ وَالتُّحَفِ ، وَفَّقَكَ اللهُ .

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ ، شَمْسُ الدِّينِ الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ أَنَا عِنْدَ أَمْرِ مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ أَبِي عَنَانٍ وَقْتَ مَا يَشَاءُ . .

طَوَىٰ الكَاتِبُ ابْنُ جُزَيٍّ سِجِلَّ الكِتَابَةِ عَنْ حِكَايَةِ حَارِسِ البُسْتَانِ ، وَانْفَضَّ مَجْلِسُ النُّدَمَاءِ ، وَكُلُّهُمْ فِي سُرُورٍ وَانْشِرَاحٍ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆